

اللجنة... لقد نسينا السيدة إنغلز!

سعيد محمد

بروليتاريّة إيرلنديّة عشقها ابن الثريّ البورجوازي الآتي من ألمانيا فتحت عينيه على مظالم الرأسماليّة. تبدو حياة فريديريك إنغلز (1820-1895) رفيق كارل ماركس الأهم وشريكه في صياغة المانيّفستو الشيوعي (1848) مليئة بالتناقضات. هذا الثوريّ المعولم المنحدر من أسرة بورجوازيّة بروسية ثريّة، أمضى معظم حياته في الثورات أو التنظير لها، وقد أنفق لأكثر من ثلاثين عاماً ثلث ما كان يكسبه من وراء عمله في معامل للقطن (كانت عائلته شريكة فيها) في مانشستر - مهد الثورة الصناعيّة ومسرح صعود الرأسماليّة الحديثة في بريطانيا. على مساعدة الرفيق كارل ماركس في مواجهة أعباء الحياة اليوميّة كي يتسنى لهما التركيز على التنظير لثورة البروليتاريا.

ورغم انحيازه للعمل الثوري منذ شبابه، لم يكن ليبترع عن المشروبات الفاخرة أو صيد الثعالب أو معاشرّة النساء الجميلات ذوات الشخصية القويّة تحديداً. لكن الأكثر إثارة من ذلك كلّهُ، كان ما كشف عنه مؤرخون محليّون في مدينة مانشستر، أن الرّجل - لفترات طويلة من إقامته الممتدة فيها لأكثر من 28 عاماً - كان يحتفظ بموقعين للإقامة: أحدهما في منطقة بورجوازيّة يسكنها أثرياء المدينة، بينما يستأجر في الوقت ذاته غرفاً أو شققاً صغيرة داخل أحياء شعبيّة مكتظة ومتواضعة. يضاف إلى ذلك أنّ أغلب كتابي سيرة إنغلز تجاهلوا البحث في أسباب تمكّن هذا الشاب الألمانيّ المتأنق من التجول بحريّة داخل أحياء الطبقة العاملة البريطانيّة وجمع معلومات ثريّة عنها ليضمّنّها كتابه الأيقوني الأوّل - عن حالة الطبقة العاملة في إنكلترا (1845) - وهو الذي كأجنبيّ تبدو عليه علائم الثراء لم يكن ربما ليخرج من أحزمة اليؤس تلك سالماً أو أقلّه محتفظاً بثيابه الفخمة.

لا تكتمل قصة إنغلز، ولا حتى السياق الكلّي لتطور الأفكار الشيوعيّة من دون ذكر من غفل التاريخ عن ذكرها: ماري بيرنز. فهذه الفتاة البروليتاريّة شبه الأميّة والمنحدرة من أصول إيرلنديّة، والتي يعتقد أنها كانت تعمل في مصنع القطن الذي كان والد إنغلز شريكاً فيه، أصبحت عشيقه فريديريك إنغلز يتوارى معها ليلاً عن الأنظار في شقق متواضعة يستأجرها غالباً بأسماء مستعارة في قلب الأحياء الشعبيّة الفقيرة من المدينة. لم يكن في تلك العلاقة أي تكافؤ اجتماعي أو ثقافي، ولم يرض عنها معارف إنغلز ورفاقه - بمن فيهم ماركس -، ولم يكن لها أن تتوّج بالزواج لأنها مؤسسة يملكها صاحب كتاب «أصل العائلة والملكيّة الخاصّة والدولة» (1884). مع ذلك، فقد بقي العاشقان معاً لأكثر من عقدين إلى أن توفيت ماري - بسكتة قلبيّة في ما يبدو - عام 1863.

لا يعرف كثيرون عن ماري بيرنز سوى أنها وشقيقتها ليديا (اشتهرت باسم ليزي) كانتا تعملان في إحدى المهن المتواضعة في مانشستر، وغالباً كعاملات مصانع، بأصولهما الإيرلنديّة. كانتا شديدي الغضب على الاحتلال البريطاني لبلادهما، ولا سيّما بعد المجاعة الشهيرة التي تسبّبت بها الإمبراطوريّة العاشمة

وقضت على نحو مليون من الإيرلنديين الفقراء.

وهناك دلائل على أن الشقيقة ليزي كانت ناشطة في العمل الثوريّ الإيرلندي، وقد أسهمت بالفعل في عمليّة

هجوم جريئة نفذها ثوريون على موكب للشرطة في قلب مانشستر، قرّر على أثرها اثنان من المناضلين

الإيرلنديين المعتقلين. مغامرات إنغلز مع ماري بيرنز في قلب أحياء الطبقة العاملة حول مانشستر، فتحت

عيني الثوريّ الحالم، الذي كان والده قد أبعده من ألمانيا للعمل في مصنعه الإنكليزيّ كي يترك حماسه

الفائز للثورة مع بيرنز، عاين إنغلز عن كثب الأوضاع الحياتيّة البائسة للطبقة العاملة، والانتفاظ والقفارة

وفقدان الأمل وترديّ فرص الحياة مقارنةً بتلك الحياة البانخة والأرباح الهائلة المستمرة بالتراكم التي كانت

تحضّلها قلّة من البورجوازيين الرأسماليين البالغي الثراء ودائماً على حساب عمالهم المسحوقين. تركت

تلك التجربة القاسية علامات لا تنسى على تصوّرات المفكر والمناضل الشاب عن أحوال العالم، رغم أنّه لم يكن غريباً عن شؤون العمال وطبقة

البروليتاريا من خلال عمله في مصانع عائلته في ألمانيا. لكن أوضاع العمّال في مانشستر كانت لا تقارن من حيث ساعات العمل - تجاوزت 16 ساعة يومياً - أو تدنيّ الأجور أو حتى

التوسع في تشغيل الأطفال على نحو انعكس سلباً على طبيعة الحيز المكاني الذي سكنته تلك الطبقات، وتسبّب في تدنيّ معدلات الأعمار فيه إلى أقلّ من 28 عاماً مقارنةً بضعف ذلك

المعتلّ في الأرياف. كما رافق إنغلز بيرنز في زيارة طويلة لبلادها الأم - إيرلندا - فشاهد رأي العين مساوئ الإمبرياليّة البريطانيّة عبر جولات متعددة لأنحاء واسعة من الجزيرة الحزينة،

كما جاورا ماركس وعائلته لعدة شهور عام 1845 بينما كان يقيم في بروكسل حينها. مع ذلك، لا تكاد ماري بيرنز تظهر في أي من السجلات الموثقة عن ميلاد الشيوعيّة لولا

إشارات مهمة على قلّتها وردت في المراسلات المكتّفة - شبه اليوميّة - بين الرفيقيين ماركس وإنغلز. ومن الواضح في تلك المراسلات أنه عقب وفاتها عام 1863، حدث ما يشبه سجلاً

قاسياً نادراً بين الرفيقيين عندما عاتب إنغلز رفيقه على طريقة تعزيبه الفاترة له بموت ماري بيرنز، بينما انتقل مسرعاً في رسالته إلى شرح الظروف المائيّة الصعبة التي كان يعانيها

وأسرته في لندن، متوقفاً من إنغلز أن يساعده لمواجهةها.

ورغم الحزن الشديد الذي يمكن تلّخسه في خطابات إنغلز في تلك الفترة تأثراً بغياب ماري بيرنز المبكر، إلا أنه ما لبث أن أصبح على علاقة مع شقيقتها الأصغر ليزي التي عاشت

معهما طوال فترة حياتهما المشتركة. وعلى الرّغم من ميل المقربين من إنغلز إلى الاعتقاد بأن تلك العلاقة كانت أقلّ توجهاً من علاقته بماري، وأنها نوع من التعامل مع الأمر الواقع للطرفين

بحكم العشرة واحتياج كل منهما إلى وجود الآخر، فإن مصادر معادية لإنغلز اتهمته بأنّه كان زير نساء وأنه أثناء علاقته بماري كان يلتقي نساء أخريات أحياناً وأنه لم يتورع حتى

عن معاشرّة الشقيقة الأصغر لعشيقته، ومهما يكن من أمر، فإن إنغلز العجوز انتقل مع ليزي إلى لندن وسكن في منزل يبعد دقائق مشياً على الأقدام من منزل ماركس، وقد اضطر

بناءً على رغبة ليزي الأخيرة قبل مفارقتها الحياة بيوم واحد إلى أن يعقد قرانه عليها. لتموت في صباح اليوم التالي (1878) وهي تحمل اللقب الرّسمي السيّدّة إنغلز. ويبدو أنه كان أكثر

صراحة مع مجتمعه في ما يتعلق بعلاقته مع ليزي، وأوحى أحياناً في مراسلاته بأنّه كان

يعتبرها كزوجة له، لبيقيّ وحيداً بعد رحيلها، وبعد رحيل صديق عمره كارل ماركس الذي توفي عام 1883... قبل أن يوافيه الأجل عام 1895 ويذرى رماده في البحر بناءً على وصيته.

سُئل إنغلز في شيخوخته عن طبق الطعام المفضل لديه - هو البورجوازي الآتي من قلب أوروبا - فكان جوابه: اليخنة الإيرلنديّة. كان ذلك دوماً طبق الفقراء الإيرلنديين التقليدي. لا شك في أن الشقيقتين ماري وليزي لم تشكلا فقط ذائقة المفكر الشيوعيّ الجليل للطعام، بل أيضاً تصوّره عن العالم الذي تريد الشيوعيّة تغييره.

أستطيع قتلك!

بسرعة عام 1867، بسبب حاجة الكاتب الملحة للثبات والتوازن بعد علاقته العاصفة بابوليناريا. أربعة عشر عاماً من الحياة المشتركة، ستقطع أنا في مطهر العذاب مرات عديدة: من موت ولديها الاثنين، الى غيرة زوجها وادمانه للقمار، لكنها ستننصر وتبقى صديقة دوستوفسكي حتى رمقه الأخير، ربما لأنها الوحيدة التي قبلها كما هي، من دون إرادة منه بتغيير مشاعرهما وطباعها، كان معها لا يلعب بالحب كما يلعب بالورق.

فيرجينيا وولف:

اهجري صديقك لاخبرك عن الآلهة

حين التقت فيتا ساكفيل . ويست بفيرجينيا أثناء عشاء لدى قريب، كانت فيتا أكثر شهرة ككاتبة (أرقام مبيعات كتبها كانت أعلى من فيرجينيا وولف). أنيقة، مثيرة وارستقراطية. فيتا المتوسطة الجمال، كانت قد اتخذت من المغامرة أسلوب حياة، بدءاً من السفر الدائم للمتعة (اسطنبول، امستردام، الرباط، برلين، باريس) التي إغواء الرجال والنساء معاً (جيوفري سكوت، فيوليه تريفويس وغيرهما). فيرجينيا من جهتها كانت قد خبرت الحب المثلي مع ماغدا فوكهام وفيوليت ديكينسون، ولكن ليس بعد ارتباطها بليونارد وولف بزواج أبدها عن الجو الحسي اللندني الذي أحاط بطفولتها، بسبب أمها

جوليا التي توفيت باكراً وجسد جمالها الكثير من الرسامين. صدمت فيتا بنقاء وحساسية فيرجينيا، لتتوالى رسائلها إليها بعد هذا اللقاء الأول. رسائل مسهبة، حادة، مفعمة بالمنظر والألوان، تتخلّى بعدها فيرجينيا عن خجلها شيئاً فشيئاً، لتتصاعد الجراة عبر تفاصيل جسدية ونفسية أكثر حميمية في رسائل فيتا التي ستصبح عشيقتها في ليلة من كانون الأول (ديسمبر) 1925.

تخطف فيتا فيرجينيا من عيادة للعلاج لتصطحبها إلى منزلها في لونغ بارن. رسائل تلك الفترة بين العاشقتين، مفعمة بالفرح كأنهما معاً قد توصلتا الى العثور والسكنى في أماكن وأزمنة الطفولة. في صفحة من دفاتر يومياتها بتاريخ 5 تشرين الأول (أكتوبر) 1927، تبدي فيرجينيا حزنها لاختفاء فيتا، التي يبدو أنها وجدت في الفاتنة ماري كامبل

عشقاً بديلاً. أيام ثلاثة قبل تلقيها رسالة من فيتا تطلب منها الصفع، شرعت فيرجينيا وولف بكتابة «أورلاندو»، الرواية التي ترمز الى حبها لفيتا والمحطة الأخيرة التي استطع حياتها المأساوية. تروي «أورلاندو» قصة مراهق من انكلترا

الإلزابيثية (1586)، يقطع قرناً ثلاثة من التاريخ (حتى 1928)، لتسكن روحه أحد اللوردات، ومن بعدها يكون سفيراً في تركيا، وفرداً من قبيلة، ثم ينقمص امرأة أديبة في انكلترا الفيكتورية. صممت وولف أمكنة وأزمنة الرواية مستندة الى تفاصيل زودتها بها

فيتا من البومها الفوتوغرافي، وحكايات أجدادها، وبيتها العائلي الساحر التي لم ترثه كونها أنثى. فيرجينيا التي كتبت مرة لفيتا: «اهجري صديقك ولنذهب الى هامبتون كورت، نتمشى قرب النهر، نشرب ونتمثل، وأخبرك عن الآلهة التي في رأسي التي يوقظها الليل»، لن تطلع صديقتها على

«القبلة» لفرانثيسكو هاييز (زيت على كانفاس - 1859)



المراجع:

Dostoiévski, mémoires d'une vie, Edition Memoire du Livre 2001
Correspondance 1923-1941-Vita Sackville-West et Virginia Woolf- Livre de Poche, 2013
أنا السوربالية، سلفادور دالي، ترجمة أشرف أبو اليزيد، كتاب دبي الثقافية، 2010.